ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

خطاب العنف وتحولات صورة المدينة في الأدب الجزائري المعاصر
- رواية سيدة المقام لواسيني الأعرج أنموذجاً

Discourse of violence and transformation of the city's Image in contemporary Algerian Literature- Novel of Our Lady of Maqam by Wasini Al-Araj as a Model

الطالبة: ليلى بردي
دة. إيمان العشي
جامعة أبو القاسم سعد الله- الجزائر 02(الجزائر)
imanlachi86@gmail.com/leilaberdi2@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2022/12/18 تاريخ النشر: 2022/12/31

الملخص باللغة العربية:

تعتبر المدينة من أهم الأماكن الرّمزية الّتي اشتغل عليها الرّوائي الجزائري المعاصر، وذلك لما تحتمله من دلالات مكتنزة، وأبعاد مكثفة قادرة على استيعاب أفكار الكاتب وآراءه وإيديولوجياته المختلفة في الواقع، وهو ما تظهره الحياة اليومية بممارستها المتعددة في كل زاوية من زوايا المدينة، ولقد استثمر هذا الملمح الفكري الكاتب واسيني الأعرج في روايته "سيدة المقام" بشكل بارز ومهيمن، وفق تقنيات سرديّة متميزة، عبّر من خلالها على تداعيات الأزمة الوطنية الّتي تعرضت إليها الجزائر إثر مظاهرات أكتوبر 1988 بما فيها من ذكريات موحشة وقاسية لها صدى قوي في نفسية كل جزائري، فكان المكان بمثابة بؤرة دالة على الوجه الكئيب لمدينة الجزائر استناداً للتّحولات السياسية والثقافية والاجتماعية.

تمخض عن هذا الطرح الإشكالية التالية: ما هي الأبعاد السياسية والاجتماعية التّي جسّدها واسيني الأعرج من خلال فضاء المدينة في روايته سيدة المقام؟

الكلمات المفتاحية: المدينة، الرمزية، سردية، الأزمة، التحولات.

Abstract :

The city is considered one of the most important symbolic spaces that the contemporary Algerian novelist worked on, due to its compact connotations and intense dimensions capable of absorbing the writer's thoughts, opinions and different ideologies in reality, which is what daily life shows with its multiple practices in every corner of the city. The intellectual feature of the writer Wasini Al-Araj in his novel "The Lady of Maqam" prominently and dominantly, according to distinct narrative techniques, through which he expressed the repercussions of the national crisis that Algeria was subjected to following the demonstrations of October 1988, including the lonely and harsh memories that have a strong resonance in the psyche of every Algerian, so he was The place serves as a focus of the gloomy face of the city of Algiers based on the political, cultural and social transformations.

This discussion resulted in the following problematic: What are the political and social dimensions that Wasini Al-Araj embodied through the space of the city in his novel The Lady of Maqam ?

Keywords: City, symbolism, narrative, crisis, transformations.

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

1-المكان: للمكان أهمية كبيرة في تشكيل البنية السردية لأي عمل روائي، لأنه يعكس الإطار الجغرافي المتخيل الّذي يرتسمه السارد لتأدية الأحداث المختلفة، وهو عنصر جامع بين عناصر الحكي الأخرى من زمان وشخصيات، وبالتالي يتقصد الكاتب اختيار أماكنه في العمل الإبداعي ويحملها دلالات إيحائية مكثفة لأن "المكان يساهم في خلق المعنى داخل الرواية ولا يكون دائماً تابعاً أو سلبياً، بل إنه أحياناً يمكن للروائي أن يحول عنصر المكان إلى أداة للتعبير عن موقف الأبطال من العالم"[1].

كما يعمل المكان على مساعدة الشخصيات في استظهار جوانبها السيكولوجية من خلال توظيف علامات سيميائية تضيف للحكي معنى آخر، فيتحول بذلك إلى أيقونة إشارية يقول تلميحاً ما لا يستطيع السرد قوله تصريحاً.

يؤكد "حميد لحمداني" على قيمة المكان في مكافئة المعادلة السردية للرواية، باعتباره عاملاً حيوي "يمكن استغلاله إلى أقصى الحدود، فإسقاط الحالة الفكرية والنفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه يجعل للمكان دلالة تفوق دوره المألوف أو كوسط يؤطر الأحداث، إنّه يتحول في هذه الحالة إلى مُحاورٍ حقيقي ويقتحم عالم السرد محرراً نفسه هكذا من أغلال الوصف"[2].

"إن تشخيص المكان في الرّواية، هو الذي يجعل من أحداثها بالنسبة للقارئ شيئاً محتمل الوقوع، بمعنى يوهم بواقعيتها، أنه يقوم بالدور نفسه الذي يقوم به الديكور، والخشبة في المسرح. وطبيعي أن أي حدث لا يمكن أن يتصور وقوعه إلاَّ ضمن إطار مكاني معين، لذلك فالروائي دائم الحاجة إلى التأطير المكاني. غير أن درجة هذا التأطير وقيمته تختلفان من رواية إلى أخرى، وغالباً ما يأتي وصف الأمكنة في الروايات الواقعية مهيمناً بحيث نراه يتصدر الحكي في معظم الأحيان"[3].

نستنتج مما سبق أن حضور المكان في الرواية بقيم متفاوتة له مبرراته الخاصة والمختلفة من كاتب لآخر، وهناك من الأعمال ما يهدف إلى الارتقاء به إلى مصاف مركزي معبر عن الهوية والانتماء والوجود وحتى المقاومة، وهو المسعى الذّي سار عليه واسيني الأعرج في روايته "سيدة المقام".

2-واسيني الأعرج:

2-1-المولد والنشأة: هو "روائي وقاص وناقد، ذو اهتمامات إبداعية وأكاديمية متعدّدة وصاحب نتاج أدبي غزير، ولد في 08 أوت 1954 بقرية سيدي بوجنان (ولاية تلمسان) المتخمة للحدود المغربية، نشأ في بيئة عائلية فقيرة. تلقى تعليمه الابتدائي بمسقط رأسه، ثم زاول تعليمه الثانوي بتلمسان، وبعد نجاحه في البكالوريا انتقل إلى جامعة وهران الّتي تخرج فيها سنة 1977، متحصلاً على شهادة اللّيسانس في الأدب

العربي. واصل دراساته العليا بجامعة دمشق، حيث أحرز درجة الماجستير في 11-06-1982، عن بحث يتناول (اتجاهات الرّواية العربيّة في الجزائر)، ثم الدّكتوراه في 20-06-1985 عن أطروحة تتناول (نظرية البطل، ملامحه في الرّواية الجزائريّة والعربيّة). وبعدها التحق بجامعة الجزائر سنة 1985 أستاذاً للأدب الحديث، ثم أستاذاً زائراً ومشركاً بعدّة جامعات فرنسية ابتداء من سنة 1994"[4].

2-2-كتاباته النقدية والأدبية: يعدّ واسيني الأعرج قامة من قامات الأدب العربي الجزائري، وله مسار إبدعي مميز حافل بالإنجازات الّتي تستحق عناء البحث والدّراسة، من أعماله النّقديّة الأصول التّاريخية للواقعيّة الاشتراكيّة في الرّواية الجزائريّة، النزوع الواقعي الانتقادي في الرّواية الجزائريّة، اتجاهات الرّواية العربيّة في الجزائر، الطاهر وطار –تجربة الكتابة الواقعيّة- الرّواية نموذجاً، ومن أعماله القصصية نذكر: أحمد المسيردي الطيب، أسماك البر المتوحش...، في حين نجد له حضور قوي في مجال الكتابة الرّوائية، حيث "لم يتوقف عن الكتابة منذ نصه الرّوائي الأوّل: البوابة الزرقاء (وقائع من أوجاع رجل غمر صوب البحر)، الّذي نشره لأول مرّة في دمشق سنة 1981"[5].

شقّ واسيني الأعرج خطاه في مسار الإبداع الرّوائي فتوالت كتاباته بين الفترة والأخرى نذكر منها: وقع الأحذية الخشنة، ما تبقى من سيرة الأخضر حمروش، نوار اللوز، مصرع أحلام مريم الوديعة، ضمير الغائب، فاجعة اللّيلة السّابعة بعد الألف، سيدة المقام، حارسة الظلال، ذاكرة الماء، مريا الضرير، شرفات بحر الشمال، مضيق المعطوبين، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، سوناتا لأشباح القدس، البيت الأندلسي، جملكية آرابيا، مملكة الفراشة، رماد الشرق، سيرة المنتهى، 2084 حكاية العربي الأخير، نساء كازا نوفا، مي ليالي إيزيس كوبيا ثلاثمائة ليلة وليلة في جحيم العصفورية...إلخ.

2-3-نشاطه:

-عضو اتحاد الكتاب الجزائريين منذ عام 1973.
-عضو مؤسس لجمعية الجاحظية الثقافية 1989.
-نائب رئيس اتحاد الكتاب الجزائريين (1990/1994).
-رئيس تحرير مجلة "المساءلة" التي أصدرها اتحاد الكتاب 1991.
-أستاذ زائر بجامعة كاليفورنيا (1990/2000).
-أعد وأنتج حصة تلفزيونية بعنوان "أهل الكتاب" (1999/2002).
-ترأس لجنة تحكيم المسرح المحترف بالجزائر 2007.
-عضو الهيئة الاستشارية العليا لجائزة الشيخ زايد للكتاب[6].

2-4-محنة الكتابة أم كتابة المحنة؟

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

تمثل الكتابة عموماً والكتابة الروائية خصوصاً عند واسيني الأعرج الوطن (مكان للانتماء) فيقول: "إنها وطن أوسع من أرضنا هذه، وهي وطن يستوعبنا عندما لا تعترف بنا أوطاننا الجغرافية لأسباب سياسية وأيديولوجية. لكن الدخول لوطن الكتابة ليس سهلاً، فهو يحتاج من الكاتب أدوات وجهود مضاعفة وتجريب في الأشكال والأنساق واللغة، ولا رفيق للكاتب سوى قلمه، ليستطيع من بعدها تكوين مجتمع القرّاء الذي بمجموعه يكوّن وطن الكتابة الذي سينشغل لاحقاً بهموم الأوطان على امتداد رقعة الإنسانية"[7].

يعقد واسيني صلة مشابهة بين وطنه الحقيقي "الجزائر" وبين "الكتابة"، لأنها أكثر الوسائل إقناعاً للتعبير عن هموم الإنسان والمجتمع، وهي اختيار صعب يحمل في طياته الكثير من الصعوبات لحساسية موقعه ودوره الفعّال في تغيير مسار الفكر لدى القارئ.

نلاحظ من خلال السياق التي صدرت فيه رواية سيدة المقام خطورة الموقف الذي كان يواجهه كل مثقف جزائري يسعى للتغير من الواقع المأساوي لمدينة الجزائر التي يقاس عليها كل شبر من الوطن، وبالتالي الكتابة مسؤولية، والتزام، ووعي بحقيقة المواقف وهي اختيار بالدرجة الأولى على الانتفاض وعدم الرضوخ.

3-تقديم رواية "سيدة المقام": يعتبر نص سيدة المقام من نصوص العشرية السوداء التي عبّرت عن المأساة دون خوف من خونة الوطن أو القتلة أو المدافعين عنهم، وهي مرثية الجمعة الحزين كما يصفها "واسيني". سافر مخطوط هذه الرواية كثيرا بين الجزائر وبيروت والمغرب وفرنسا قبل أن يخرج في ألمانيا عن دار الجمل، والرواية موزعة عبر مئتين وأربع وثمانين صفحة ضمن إحدى عشر فصلاً، تدل تسمياتها على تدرج الأحداث وتواليها كالتالي: مكاشفة المكان، ظلال المدينة، فتنة البربرية، حنين الطفولة، محنة الاغتصاب، الجمعة الحزين، الجنون العظيم، البحر المنسي، حراس النوايا، إغفاءات الموت، نهاية المطاف.

"الرواية أنشودة من أناشيد الموت والحياة، مرثية لـ"مريم" وللسارد بطل الرواية، يغرق فيها بطل الرواية وهو يغني لـ"مريمه" ويستحضرها ويحكي لها حكاياتهما معاً. حيث لا شيء يعلو فوق الموت، فالرواية، بكل تفاصيلها، تقترب من الموت لتجعل منه حياة لبطلها، أين يستحضر السارد وبعنف وقسوة كل تفاصيل حياة "مريم"، راقصة الباليه، التي قنصتها رصاصة غادرة أصابتها في الدماغ، ولمجرد أنها كانت مبدعة تحتفل بجسدها أمام من يعشقون "مقاماته" وأبراجه العالية. جريمة قام بها من يسميهم النص "حراس النوايا"، ويعني بهم الأصوليين المتطرفين، وتحت أنظار "بني كلبون" ويعني بهم كل المتفرجين على الجريمة من رجال الدولة وأمنها الذي لا يوفر الأمن للمواطنين"[8].

يقول السارد: "إنه تاريخك يا مريم!؛ اليوم الذي ثقبت دماغك رصاصة، التاريخ الذي كان يفترض أن يكون فيه يوم موتك، ولكنه لم يكن، قال لك الأطباء لا خيار لديك سوى أن تتعايشي معها، وتعايشت

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

مخترقة كل طقوس الحذر، ذلك الزمن بدأ يبتعد بخطى حثيثة، لا تتذكرين من الألوان سوى الدم، والصرخات الجافة"[9].

تمثل "مريم" مدينة الجزائر الّتي اغتيلت أمام أعين الجميع من طرف الجماعات الإرهابية، ففقدت بذلك حياتها وكل أمل، وغدت شاحبة حزينة، يكسوها رداء مأساوي كئيب، قليل من يملك جرأة الدفاع عنها في لحظة الضياع والانفلات في غياهب الظلم.

يضيف "محمد عز الدين التازي" قائلاً: "ما حدث هو الحكاية في الرّواية، حكاية اغتيال مريم. لكن ما حدث كان أفظع من مجرد اغتيال راقصة الباليه، لأنه اغتيال لحلم وطن بالحرية والتّحرر وممارسة الفرد لحقوقه الإنسانية، فقد تم نسيان أسماء الشوارع المسماة بأسماء الشهداء، وحتى الخطاب الوطني تحول إلى خطاب ديني. أزمة بطل الرّواية تكمن في التّحولات السياسية التّي أدّت إلى اغتيال مريم، وإلى اغتيال أحلام المواطن بالخبر والأمن والحرية"[10].

عمد واسيني الأعرج إلى توظيف "النّص الوثيقة؛ الذي يقدّم شهادة على الحاضر المأزوم لجزائر التسعينات، والاشتغال طوال الرّواية على التلاعب بين الرّوائي،والسيري في لغة سردية هجينة؛ تتعدد فيها مستويات الكلام من فصيح، ودارج جزائري، وأعجمي فرنسي"[11].

زاوج الكاتب بين اللّغة العربيّة الفصيحة واللّغة الدّارجة في الكثير من المقاطع السردية، كما أدرج بعض الأقوال باللّغة الفرنسية، وهو ما يعكس حال الجزائر الّتي لم تسلم من آثار الاستعمار، حيث ضرب في أحد أهم مقومات الدّولة ورموزها وهي اللّغة، فأصبح الجزائري لا يركن بحال من الأحوال إلى لغة تواصلية معينة.

إن واسيني، وهو يكتب، "تكون عينه على التعامل مع اللغة من موقع القدرة التواصلية والقدرة الشعرية بما تحمله الكلمات من دلالات وإيحاءات لمّا توظف في سياقات متنوعة ومتعددة تكون أقرب للغة الناس في تواصلهم اليومي. ولكي يكون في روح هذه اللغة اليومية فإنه يوظف الجمع بين اللغة العربية واللغة الفرنسية ليشير ربما إلى الازدواجية اللغوية في الخطاب الجزائري اليومي"[12].

4-دلالة المكان ومظاهر العنف: إن طبيعة المكان في سيدة المقام يرتبط بإحساس الروائي ورؤيته الخاصة، حيث تعدى كونه منطلق هندسي خاضع لحسابات الطول والعرض إلى معطى رمزي يتقصد من خلاله قيم ضمنية تعكس تأثره بما حدث لمدينة الجزائر من تحولات دامية مستميتة بفعل الخلفيات السياسية المسيطرة.

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

شعور "الأعرج" بالمأساة تجاه العاصمة جعله يخلّدها بهذا العمل، فهي إذن ولدت من رحم معاناة الكاتب الذي لا يمتلك إزاء كل ما يحصل لبلده في ظل الصراع على الملك والسلطة بين "بني كلبون"، و"حراس النوايا" كما ينعتهم سوى الكتابة لوعي منه أن الأديب حينما يفقد وطنا يكتب روايته، ذلك أن الكتابة انتصار للضياع، وتثبيت وخلود للتاريخ والذاكرة"[13].

إن "سيدة المقام نص شمل الكثير من عناصر الجمال، واستطاع إلى حدّ بعيد أن يتكلم بلغة جزائر التسعينات تجمع بين اللغة الوظيفية واللغة الفنية، فحين تتكلم "مريم" تتكلم جزائر الذكرى والذاكرة والحنين والتطلع، وقد يجد القارئ متعة وهو يتنقل بين مستوى ومستوى وبين تركيب وتركيب خاصة لما تعتصر المحنة والألم عبر رصاصة استقرت في الرأس"[14].

كما نجد "مريم ذاك الصدى وذاك الرجع وذاك الحنين، وذاك الأفق وذاك المستقبل: الرقصة والرصاصة. يتحول الرقص من حركات جسمانية وتموجات جسدية إلى ممارسة فكرية ومران لغوي تدل عليه حركات الكلمات وعفويتها، وقديماً قال أبو الطيب المتنبي:

لا تحسبوا رقصي بينكم طرباً فالطير يرقص مذبوحاً من الألم

إن هذا الرقص المميز عزف منفرد في مقابل معجم لغوي أوجدته حوادث أكتوبر 1988، وجعل المبدع يدرك أن اختيار الكلمات وتحميلها بدلالات فنية وجمالية يعطي للنص قدرة على الإيحاء لتقول الألم من دون تواطؤ مع القتلة أو المدافعين عنهم (بني كلبون، حراس النوايا) كما جاء في غلاف الرواية"[15].

"أثارت الرواية "سؤال الذاكرة" الذي يبدو بعيداً: كيف يمكن لبلد كان واجهة مفتوحة على العالم أن يصبح فجأة بلداً منغلقاً وغير متسامح مع تاريخه؟ أي يد عبثت، لتحوّل مادة الانتصار الثقافي المتعدد، إلى حالة إعاقة ومرض مزمنين؟ لم تكن النصوص التي كتبت عن محنة الجزائر كسيدة المقام، ذاكرة الماء، حارسة الظلال، مرايا الضرير، إلاّ محاولة للانخراط في الشهادة ضد العصر والعمل على مخبآت الذاكرة. قول الحقيقة المباشرة، الحية، النابضة، مع احتمال الخطأ وتفادي الصمت المتواطئ. وفي الوقت نفسه التأمل طويلاً في الشروخات الكبيرة للذاكرة الوطنية التي تتخبّأ فيها ممارسات معاكسة لما كان يحدث في الجزائر"[16]. وهكذا نجد الجزائر حاضرة كتيمة سردية مهيمنة في كتابات واسيني الأعرج لما لها من أثر قوي في الإبداع، وتشكيل الوعي بأهمية الكتابة في الدفاع عن الوطن.

يقول الكاتب: "ويتجسد العنف الرمزي في الجزائر، خلال السنوات الأولى من الأزمة أو الحرب الدموية، التي قادتها الجماعات المتطرفة الرافضة للوضعية الاجتماعية، التي يعيشها الشعب الجزائري، والمتسبب الوحيد في هذا الخلل، الذي ضرب الهرم الاجتماعي في نظرها، هو النظام السياسي الفاسد. ومن نافلة القول

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

أن نعرف ما معنى، أن يشعر أي فرد من أفراد المجتمع بالاضطهاد وفقدان الثقة بالسلطة السياسية، فحينئذ يتحول هذا الفرد من فرد هادئ متزن إلى فرد همجي، تعامله اليومي الوحيد هو العنف لإثبات ما فقده. ومن ذلك مثلاً حركات العنف الأعمى التي تمارسها جماعات مثل: الحركة الإسلامية في الجزائر، والجماعة الإسلامية المسلحة"[17].

إن تعدد أسباب التطرف في مدينة الجزائر لن يكون أبداً مبرراً للمخاطرة بقدسية المدينة، وجرّها في مزالق العصيان والاشتباكات العنيفة، والممارسات الهادمة، لأن الغاية في مثل هذه المواقف الحساسة لا تبرر الوسيلة أبداً.

ويضيف: "كلنا يحمل في الدماغ رصاصات، بل عيارات مدفعية، نحمل حزنا بثقل القرون التي مرّت بجفاف مدقع، لم نرث منها إلا كيف نموت، ووضعنا كل شيء له علاقة بالحياة في المزابل، ومسحنا به وسخ الشوارع، نحمل معك حتما أهوال الجمعة الحزين، وجنازاته السرية، وأشلاء أناسه، الفارق الوحيد أن الرصاصة حقيقية في دماغك، تذكرك بوجودها كلما نسيتها، بينما يحدث أن ننسى ذاكرتنا، وننغمس في أحزان التفاهات اليومية"[18].

تختزن الذاكرة الجزائرية أحداث أكتوبر 1988، حيث خلدّتها رصاصة الخيانة الكبرى، التي غيّرت مسار أمّة بكاملها، فعوضاً أن توجه نحو الآخر اللّعين –حراس النوايا-، وجّهت نحو –مريم- مدينة كل جزائري. "منذ أن جاء حراس النوايا بدأت المدينة تلوح بنصب مشانقها وتسن السكاكين والسيوف، وتحشو أسلحتها بالبارود"[19]

توقف واسيني الأعرج عند هذه الحدود من الوصف ولم يتغلغل أكثر في "تصوير الجرائم الشنيعة التي ارتكبها الإرهابيون في حق الضعفاء، لأنه مهموم ومشغول بما هو أكثر هولاً، إنه يخشى على المدينة التي تمثل رموزاً عديدة في نفسه أن تؤول إلى الزوال والدّمار"[20]. المدينة ليست مجرد معطى جغرافي، إنه الانتماء بالنسبة للكاتب، أمانة الشهداء والأجداد، رمز التضحية والفداء، وليس من السهل عليه ترقبها عن كثب وهي تحتضر تحت وقع حراس النوايا.

لم يعتمد السّارد في نقل المكان على مجرّد الوصف الفوتوغرافي الذي يعيد نظرته الخاصة، وكأنه يسعى من وراء ذلك إلى إثارة المسكوت، وخلخلة المألوف، وقد انعكس ذلك على أفعال الشّخصيات، فحمّل المكان بذلك قيماً مختلفة، وأحيانا متعاكسة"[21].

ليلى بردي/ الصفحات: من 23 إلى: 32
الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر2022م
Available online at https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715

يقول الكاتب متحدثا عن المدينة "كل شيء فيها بدأ يفقد معناه، الشوارع، السيارات، البنايات، حتى الوجوه التي تعودنا على وضاءتها صارت متسخة، الأشواق التي تحتل قلب المدينة، لم تعد تحفل كثيرا بالفرح"[22].

ويضيف في مقام آخر"أشعر بالوحدة القاتلة في هذه المدينة التي تغيّرت كثيراً، تركت ألبستها وارتدت ألبسة مستوردة لا علاقة لها بتاريخنا وحياتنا، بدا لي أنّ كلامي مسيس جداً، معناه أنّي أضيف إدانة جديدة ضدي"[23]. يشير هذا القول إلى بحث الراوي عن تاريخه ومجده وهويته وهو يجوب شوارع المدينة المنهكة من تقمصها أدواراً مستوردة لا تليق بها.

يقول الكاتب: "لست أدري ما الذي جعلني استرجع الكآبات القديمة، لست أدري ما الذي رماني في عمق المأساة القديمة، بنو كلبون صنعوا الموت وجاءوا بهذا الوباء، عندما سرقوا استقلال هذا الوطن ...، ثم قالوا المدينة بدون ثقافة ...، قالوا ليعيش الفراغ، أحسن من أن يفكّروا في السّلطة. وذات صباح فوجئوا بحراس النّوايا يقفون عند أقدامهم ويدقون على أبوابهم الموصدة، يزاحموهم في سلطانهم، الكثير من بني كلبون والتّجار والسماسرة وبيَّاعي الكيف، والترابانديست والحيطيست، صاروا من الوافدين الجدد على هذه المدينة، ما يحدث في هذا البلد كارثة، كارثة!"[24]. يشير الكاتب إلى تعدد الأطراف الفاعلة في ضياع المدينة وشراكتهم الدنيئة في المساومة على الوطن، والاستسلام للوباء الّذي جاء به بني كلبون ومن تبعهم وساندهم.

ويقول: "كانت مريم وردة هذه المدينة وحلمها، وتفاحة الأبناء المسّروقة في لحظة غفلة، رعشة المعشوق وهو يكشف فجأة خطوط جسر معشوقته، لكنها سقطت من تعداد كل الأشياء الثمينة التي ظلت مدة طويلة تعتز بها البنايات، والشّوارع، وقاعات المسّرح، وصالات الرقص، والحارات الشّعبية التي بدأت تتآكل على أطراف المدينة التي غيّرت طقوسها وعاداتها منذ أن بدأ "حراس النّوايا" يزيحون سلطة بني كلبون ويستعيدون أمجاد الورق الأصفر، والحرف المقدس، والسّيوف المعقوفة"[25]

تحمل الرواية في طياتها مؤشرات ضياع مدينة الجزائر في رهبة الخوف وتعالي المدّ السلطوي، حيث عمد الكاتب لاستنطاقها لتخبر عن نفسها مجريات الجمعة الحزين.

شيء ما تكسّر في هذه المدينة بعد أن سقط من علو شاهق. لست أدري من كان يعبر الآخر: أنا أم الشارع في ليل هذه الجمعة الحزين. الأصوات التي تملأ الذاكرة والقلب صارت لا تعدّ، ولم أعد أملك الطاقة لمعرفتها. كل شيء اختلط مثل العجينة[26].

حدثت خلخلة في الموازين السائدة، فاهتز على إثرها كل جميل وتساقط على مسرح المدينة كل حلم؛ حلم الفن، حلم المثقف، حلم المدينة... حلم الجزائر.

كما "يصف الراوي المدينة فيراها مدينة غيّرت الكتاب والعلم بالصفرة، والشعر بالحكاية، والكتابة بالرواية، والحروف المنسوخة على جلد الماعز بالنار والموت والدم، كل شيء تصدع بقوة، بقوة فظيعة، ثم يعمد الراوي إلى تحديد الماضي المنتقى من طرف المتطرف، فينتقي عناصر حضارية تدل على ثقافة الماضي وعقيدته يمكن إعادة تصنيفها إلى نوعين: عناصر ثقافية عقدية (الورق الأصفر، الصفرة، الحرف المقدس، الحكاية، الرواية)، وعناصر تدل على عنف هذه الثقافة والعقيدة (السيوف المعقوفة، الموت والدم، النار). ولا شك أن في أن الأولى تنتج الثانية، بمعنى أن هذه الثقافة والعقيدة تولدان العنف والتطرف، وهنا لا تبدو اللغة السائدة في النص لغة الراوي، وإنما هي لغة الكاتب"[27].

وختاماً لهذه الورقية البحثية يمكننا القول أن رواية سيدة المقام عبّرت لنا عن الوضع المتأزم الذي عايشه المثقف خلال فترة العشرية السوداء، والذي أدى به إلى الانتحار نتيجة لتأثره بما حدث لمريم، "مريم" مدينة الجزائر التي تلاشى بريقها وأملها وارتسمت على جسدها مشهدية مأساوية يمثلها اغتيال الذات والهوية والفن، فغدت الجزائر كئيبة حزينة، وغالباً ما كانت الأحداث هي عامل مباشر في بثّ الحياة في المكان، لكن وقع هنا الاستثناء مع أحداث أكتوبر 1988 التّي قتلت كل ما هو جميل في مدينة الجزائر.

هوامش البحث:

[1]- حميد لحمداني، بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، ط 3، 2000، ص 70.

[2]- المرجع نفسه، ص 71.

[3]- المرجع نفسه، ص 65.

[4]- يوسف وغليسي، النقد الجزائري المعاصر من "اللاّنسونية" إلى "الألسنية"، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، د ط، 2002، ص 210.

[5]-واسيني الأعرج، كتاب الأمير مسالك أبواب الحديد، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2004، ص 03.

[6]- محمد هواري، أعلام الأدب العربي المعاصر، ترجمة حقيقية لـ 50 شخصية أدبية، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، د ط، 2017، ص 372-373.

[7]- عبد الرزاق الربيعي، وسام عبد الحق العاني، كتاب مفتوح... حوارات ثقافية رقمية، 2022، ص 23-24.

[8]- محمد عز الدين التازي، روائيون وتجارب، وكالة الصحافة العربية ناشرون، الجيزة، د ط، 2018.

[9]- واسيني الأعرج، سيدة المقام، منشورات الفضاء الحر، الجزائر، ط1، 2001، ص9.

[10]- محمد عز الدين التازي، روائيون وتجارب.

[11]- بوشوشة بن جمعة، التجريب وسؤال الحداثة في الرواية العربية الجزائرية، كتاب الملتقى الخامس – عبد الحميد بن هدوقة أعمال وبحوث، مديرية الثقافة لولاية برج بوعريريج، وزارة الاتصال والثقافة، الجزائر، ط5، 2002، ص248.

[12]- محمد تحريشي، قراءات في الخطاب الروائي، Ekutub، لندن، د ط، 2017، ص 97.

[13]- طويل سعاد، المدينة في رواية "سيدة المقام لواسيني الأعرج"، مجلة المخبر – أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، قسم الأدب العربي، جامعة بسكرة، ع4، 2008، ص 233.

[14]- محمد تحريشي، قراءات في الخطاب الروائي، ص 95.

[15]- المرجع نفسه، ص 102.

[16]- إبراهيم عبد المجيد وآخرون، أفق التحولات في الرواية العربية، شهادات، دار الفنون، العراق، د ط، 2003، ص 187.

[17]- حفناوي بعلي، الرواية الجزائرية الجديدة المنحى الملحمي والسرد الأسطوري فصوص النص الصوفي، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، 2020، ص 20.

[18]- المصدر نفسه، ص 145.

[19]- واسيني الأعرج، سيدة المقام، ص 20.

[20]- عبد اللطيف حني، الرواية الجزائرية بين الأزمة وفاعلية الكتابة، أعمال الملتقى الوطني الثاني في الأدب الجزائري بين خطاب الأزمة ووعي الكتابة يومي 17/16 مارس 2009، قسم اللغة العربية وآدابها، معهد الآداب واللغات، المركز الجامعي بالوادي، الجزائر، ص 278.

[21]- عبد الحميد هيمة، المأساة الوطنية في الرواية الجزائرية: قراءة في نماذج من الرواية الجزائرية الجديدة، مرجع سابق، ص 229.

[22]- واسيني الأعرج، سيدة المقام، ص 35.

[23]- المصدر نفسه، ص 223.

[24]- المصدر نفسه، ص 228-229.

[25]- المصدر نفسه، ص 5-6.

[26]- المصدر نفسه، ص 05.

[27]- الشريف حبيلة، القيم بين واقعية الفعل وسلطة المرجع: مقاربة سوسيولوجية في الرواية العربية، إسلامية المعرفة: مجلة الفكر الإسلامي المعاصر بحوث ودراسات، السنة الحادية والعشرون، ع 83، شتاء 1437هـ-2016م، ص 130-131..